مميّزات الأغراض الشعرية
عند ابن الرّومي
Characteristics of poetic purposes
According to Ibn Al-Roumi

ط- د: ابراهيم فكرون
جامعة محمد خيضر – بسكرة- الجزائر

ملخّص:
ابن الرومي من شعراء القرن الثالث الهجري في العصر العباسي، تختلف شاعريته عن شعراء العرب؛ كونه لا يعير الصياغة اللّفظية والأسلوب التعبيري اهتماما كما كان يعيره للعمل العقلي وللمعنى العميق الدقيق، إنّه من الشّعراء المولّدين الذين برعوا في نظم الشّعر بقريحته الوقادة وفكره العميق، فشعره يمتاز بالسّلاسة والرّقة والسّهولة والعذوبة والإطناب... ونحاول في دراستنا الوقوف عند ثلاثة من أغراضه نبحثها بالتّفصيل وهي : المدح والرثاء والهجاء قصد الوقوف على أهمّ الخصائص الشعرية عند ابن الرّومي وبخاصة هذه الأغراض.
الكلمات المفتاحية: الأغراض، المدح، الرثاء، الهجاء، الشعر.

Abstract:

Ibn al-Rumi was one of the poets of the third century AH in the Abbasid era. His poetry differs from that of Arab poets. Since he does not pay attention to the verbal formulation and expressive style, as he used to lend him to work on expressing the image, he is one of the poets and generators who excelled in composing poetry with his opinion and thought, its copy, its poetry, its ease, its ease, its ease, its forms and its poetry ... It is defined as: praise and lamentation Spelling is the most important form of poetry for Ibn al-Roumi for these purposes.

Keywords: Purposes, praise, elegies, satire, poetry.

تمهـــــــــــــيد:

قبل أن نتطرق إلى الحديث عن أغراض شعر ابن الرومي،يجدر بنا أن نشير إلى أنّ الشاعر أجاد في معظم الأغراض الشّعرية، فهو«صاحب النغم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة،ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية» [1]،وهو « من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب» [2] وهو«من طراز أبي تمام،وخاصة حين يقرأ له بعض أبيات مفردة أو قطعا قصيرة»[3].

كما أنّه يعد من اولى الناس باسم الشاعر كما ورد في قول ابن رشيق « وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر...»[4].ويؤكد الدكتور إحسان عباس في تاريخ النقد الأدبي: «أن ابن ظافر يعدّ ابن الرومي إمام الشعراء»[5]. وقد ضمّ الديوان جميع فنون الشعر العربي من مدح إلى هجاء فالغزل فالوصف فالرثاء...،غير أن المدح كان أكثر الأغراض تطرقا،وقد طالت قصائده وقاربت الأربعمائة بيت،ورأينا أن هذا الغرض يمتزج ببعض الأغراض الشعرية الاخرى.

أ-المدح:

رغم احتلال المديح الحيّز الكبير من شعره إلى أنه«لم يأخذ الأهمية التي أخذها سائر الأغراض في قصائده،لسبب فشله في هذا الفن»[6]. وهذا راجع لكونه متقلب الأحوال، متناقضا مع نفسه «لأنه كان غريب الأطوار لا يستقر في حال واحدة،فقد يمدح اليوم إنسانا ويذمه غدا،وهو في مناقضاته وجمعه بين الأضداد متأثرا بطبيعة عصره،إلى جانب ما خصّ به من عناية ودقة في عرض صوره وبسطها» [7]. وهذا ما يتضح من خلال قول ابن رشيق:و«كان ابن الرومي يُقَصِّد فيجيد ويطيل فيأتي بكل إحسان وربما تجاوز حتى يسرف وخير الأمور أوساطها»[8].

حيث يقول:[9]

كـــل امـــرئ مـــدح امـــرأ لنوالـــه ** فأطـــال فيـــه فقـــد أردا هجـــاءه**

لـــو لـــم يقـــدر فيـــه بعـــد المســـتقي ** عنـــد الـــورود لمـــا أطـــال رثـــاءه**

غيـــري فـــإني لا أطيـــل مـــدائحي ** إلا لأوفـــي مـــن مـــدحت ثنـــاءه**

فمن خلال هذه الأبيات نرى أنه يعتبر المطير في قصائد المدح لإرضاء الممدوح هجاء له،وفي البيت الاخير يبيح لنفسه إطالة قصائد المدح لإرضاء الممدوح،واستكمال حقّه في المدح،محاولا بذلك إقناع الممدوح بجميع الوسائل غير أن ابن قتيبة تنبّه إلى قضية الإطالة في القصائد إذ قال:«فالشاعر المجيد...لم يطل فيملّ السامعين ولم يقطع بالنفوس ظماء إلى المزيد »[10].

فابن الرومي من خلال إطالته في المديح يبدو أنّه محتذٍ للأقدمين«سار على نهج التقليديين من حيث التقديم بالنسيب،ولكن على طريقته التي تعتمد التفصيل والتقصي في المعاني»[11].

ويربط الدارسون هذه الظاهرة «بالمنهج الاعتزالي ويذهبون إلى القول بأنه كان معتزليا...نرى بعض قصائده تصل إلى ثلاثمائة بيت،والمقدمة فيها قد تبلغ مائة بيت،وهذا

واضح جلي في قصيدته النونية في مدح اسماعيل ابن بلبل»[12]. فقد أطال في مقدمتها حتى جسّد فواكه البستان بالمرأة حيث يبتدئ قصيدته بقوله:[13]

يقولـــون مـــالا يفعلـــون مســـبّة ** مـــن الله مســـبوب بهـــا الشـــعراء**

ومـــا ذاك فـــيهم وحـــده بـــل زيـــادة ** يقولـــون مـــا لا يفعـــل الأمـــراء**

في حين يشير شوقي ضيف إلى كون:«ابن الرومي يطيل وبعبارة أخرى يستقصي المعاني والأفكار على أن السبب الاخر الذي ذكره العقاد وهو المديح لا يطرد في جميع قصائد ابن الرومي لأنها لا تبنى كلها على المديح،وأكبر الظن أن السبب الأهم هو ما قلناه من أنّ الشاعر كان يستخدم الصياغة المنطقية في قصائده،فشغف بهذا الطول الذي هو من أخص صفات من يريدون التعبير المنطقي الواضح» [14].كما أن الشعر عنده لم يكن تعبير عاطفة،«بل أصبح تعبير العقل قبل أن يكون تعبير عاطفة وبذلك عمّه غير قليل من التحليل والتفصيل،والبحث والتحقيق»[15].

ويعتبر ابن الرومي من أوائل العباسيين الذين أعدوا لهذا الممر الذي يصل بين الشعر والنثر وأكد شوقي ضيف أن ابن الرومي كان ممن أهلّوا لهذه الحركة الواسعة من نظم النثر وحلّ الشعر[16].

فابن الرومي كان يفترض في عمله جميع العلل، والاحتمالات فإذا أحس أن المعنى غير مكتمل او الفكرة ناقصة ألح عليها إلى أن يصل إلى المبتغى فهو يقلب المعنى في أكثر من صورة،«فكل مرة نجد إيحاء جديدا لمعناه،وفي صورة نراه يعرض نفس المعاني السابقة ولكن في ثوب جديد»[17].إذ يقول:[18]

مـــن وجهـــه الوجـــه الجميـــل ** وشخصـــه الشـــخص الجهيـــر**

مـــن منّـــه المـــنّ القليـــل ** وفضـــله الفضـــل الكثيـــر**

مـــن جـــوده الجـــود الشـــهير ** وبذلـــه البـــذل الســـتير**

فمن خلال هذه الأبيات نرى أن ابن الرومي جمع لممدوحه في هذا النص صفات وفضائل خلقية وخلقية. وتكاد إطالة القصائد عند ابن الرومي تكون صفة غالبة في جلّ موضوعاته،غير أن إطالة القصائد من عدمها راجع إلى التعبير عن مشاعر وأحاسيس قد تطول بهما القصيدة أو تقصر، فلا يستطيع الشاعر كتم هذه الأحاسيس والمشاعر،غير أن من مديحه ما استحسن رغم طوله إذ يقول:[19]

هـــو الغـــرّة البيضـــاء مـــن آل مصـــعب ** وهـــم بعـــده التحجيـــل والنـــاس أدهـــم**

نجد هذا البيت في قصيدة قالها ابن الرومي مادحا لعبيدة الله ابن عبد الله"خصم اللّيالي"،فالممدوح من خلال هذا البيت هو أول الناس في قومه.«وكان يرى فضلا عليه للممدوح أن يستصعب ولا يستسهل،فإذا طرق القوافي السهلة اعتذر من تقصيره»[20]. كما قال لأبي القاسم التوزي الشطرنجي من قصيدة ناهزت مائة وخمسين بيتا التي يقول فيها:[21]

ولـــك العـــذر مثـــل قـــافيتي فيـــ ** ـــك اتســـاعا فإنهـــا كالفضـــاء**

وتأمـــل فإنهـــا ألـــف المـــد ** د لهـــا مـــدّة بغيـــر انتهـــاء**

فالواضح من خلال هذا القول أن ابن الرومي «كان يستريح إلى الإطالة كما يستريح الجواد الكريم إلى سعة المضمار،لأنها تشبع لذة القدرة على النظم والتمكن من اللغة وتنفي ظنة العجمة التي كانوا يعيرونه بها ويتهمونه في شعره من أجلها» [22]. ولكن الشاعر كان غريب

الأطوار والأدوار فكان يمدح إنسانا تارة ويذمه أخرى،فهو لا يستقر على حال واحدة«وأجمل ما يلفت النظر في مدحه،تهجمه على من يمدحه،حين يعرض عنه،ولا يثيبه على ما جمّله به من عذب الكلام القصائدي فيثور عليه»[23]. ويشير العقاد إلى كثرة المديح في شعر ابن الرومي فيقول:« لابن الرومي ممدوحون كثيرون يزيدون على الأربعين»[24].

كما يقول في قصيدة (مادح اللئام):[25]

يـــا مـــادح القـــوم اللئـــا ** م وطالبـــا نيـــل الشـــحاح**

مـــا أنـــت فـــي زمـــن المديـــ ** ـــح ولا الهجـــاء ولا الســـماح**

وما يؤكده الدكتور عبد المجيد الحر في كتابه حول توفيق الشاعر في هذا الغرض إذ يقول:«إنها عينة من الثورة في مديحه ،وهو غرض ما عرف فيه الشعراء سوى الإطراء للممدوح، والتواضع لدى عرض ما يصفونه به، إلا ابن الرومي غرّد خارج سربه حتى في مديحه ومن أجل ذلك لم ينجح به، ولا كان غرضا ناجحا في قصائده» [26]. يتضح لنا من خلال قول الدكتور عبد المجيد أنّ ابن الرومي قد خرج عن الطريقة التقليدية في المدح، وهذا ما جعله غرضا غير ناجح في قصائده.

ب-الرثاء:

« يمتاز شعر الرثاء عند ابن الرومي بنشوة الإيقاع في الموسيقى المتألقة الخالدة، ويمتاز بأخذه من نوعي الرثاء الذي اشتهر لدى الشعراء العرب» [27]. وما يؤكده إليا الحاوي حول نوعي الرثاء فيقول :«الرثاء الكلاسيكي العام الذي يقوم على معان مقررة معروفة، والنوع الآخر رثاء وجداني وهو الذي يعبّر عن مأساة النفس تحت وطأة الفجيعة، وقد ألم ابن الرومي بهذين النوعين من الرثاء ، ومن أجمل مثال على رثائه الوجداني، قصيدته في موت ابنه الأوسط الذي توفي منزوفا» [28] حيث يقول في رثاء ولده:[29]

طـواه الـردى عنـه فأضـحى مـزاره ** بعيـدا علـى قـرب قريبـا علـى بعـد**

لقـد أنجـزت فيـه المنايـا وعيـدها ** وأخلفـت الآمـال مـا كـان مـن وعـد**

وقال في رثاء ابنه الثالث:[30]

أبنـــيّ إنّـــك والعـــزاء معـــا ** بـــالأمس لـــفّ عليكمـــا كفـــن**

مـا فـي النهـار. وقـد فقـدتك. مـن ** أنـس ولا فـي الليـل لـي سـكن**

«وقد عبّر ابن الرومي عن نوازع نفسه وصوّر ما ينتابه من رغبات متباينة وتردده بين الرغبة في الثراء، والرغبة في الزهد، وتقلبه بين الحرص والجبن وغير ذلك من نوازع» [31] فيقول:[32]

فأصـبحت فـي الإثـراء أزهـد زاهـد ** وإن كنـت فـي الإثـراء أرغـب راغـب**

حريصـا جبانـا، اشـتهى ثـم انتهـى ** بلحظـي جنـاب الـرزق لحـظ المراقـب**

فنجد ابن الرومي «حول الموضوعات التي تناولها في رثائه، نجد أنّه مثّلها بأسلوبه المندمج بأحوالها، في رثائه لأحد الأمراء» [33]. فيقول فيه:[34]

إنّ المنيّـــة لا تبقـــي علـــى أحـــد ** ولا تهـــاب أخـــا عـــزٍّ ولا حشـــد**

هـذا الأميـر، أتتـه وهـو ذو كنـفٍ ** كاللّيـل مـن عـددٍ، مـا شـئت، أو عـددٍ**

فمن خلال هذه الأبيات يمكننا أن القول أنّ ابن الرومي يعرض فكرة الموت أكثر ممّا يعرض للميّت ذاته. وما ميّز ابن الرومي في رثائه المبالغة المفتعلة، والتعمّد، فهو يصف مثلا المصيبة بموت الأمير فيقول:[35]

كم من مصائب، كان الدهر أخلقها ** أضحى بها، الناس في أثوابها الجددِ**
من بين باكٍ، له عين تساعده ** وبين آخر مطويٍ على الكمدِ**
فعبرة في حدورٍ، لا رقوء لها ** وزفرة تملأ الأحشاء، في صعدِ**

إنّ المعنى الأصيل الذي بالغ فيه بوصف المصيبة، إنّما هو إنفرادها لكن الشاعر شأنه في ذلك، شأنه في سائر المعاني، «حاول أن يستر هذا المعنى بزيّ آخر، حتى يبدو جديدا ويشتدّ، بالتالي تأثيره» [36]. ونجد من مرثيات ابن الرومي في وصف المدن تفجعه على مدينة البصرة، أثناء ثورة الزنوج «فمن أروع آثار هذا الشاعر الفذ، فقد راعه أن تصبح البصرة بين عشية وضحاها مرعى مباحا لهمل الزنج، وطعام السوقة إذ أشعلوا الحرائق بها من ثلاث جهات »[37]،فاستهلّ ابن الرومي الشاعر قصيدته بكلمات تنبثق من الذات والمشاعر الصادقة تجاه ما أصاب مدينة البصرة، وهذا ما يظهر صدق إحساس ابن الرومي« وأنّ عينه التي كانت تذرف الدموع لم ترما حلّ بالبصرة ،ولكنّ نفسه الشفافة دعته بأن يحضر مع البصرة وأهلها بعاطفة وشعور داخلي، وأن يعيش الحدث وكأنّه عاينه» [38]. ويواصل الشاعر وصفه لهذه الفاجعة « فيرسم ابن الرومي صورة فريدة بدقائق ميزاتها»[39]. يقول فيها:[40]

لهف نفسي عليك يا معدن ** الخيرات، لهفاً يعضّني إبهامي**
لهف نفسي عليك يا قبّة ** الإسلام، لهفا يطول منه غرامي**

« إن التلهف الملتهب في زفرات شاعرنا المتأججة بنار الأسى... يرمز بها إلى الإسلام الذي ترفع شعاره، بحصانة أبنائها وحصافتهم، وبهذا التلهّف ،كان الشاعر المفتّن الذي سجل هذه الثورة الزنجية بنفس طويل»[41]. ويكمل ابن الرومي وصفه لخراب البناء وما حلّ بالناس« حتى يعمل الشاعر على تجسيد المدينة بساكنيها»[42]،وهكذا إلى أن يصل إلى المرحلة الأخيرة من قصيدته واصفا تهديم القصور وحرقها قائلا:[43]

بدّلت تلكم القصور تلالاً ** من رمادٍ ومن ترابٍ ركام**

«فالشعر العربي أرقّ وجدانية من رثاء ابن الرومي لصلة الرحم من فلذات كبده، وللقريبين إليه من الصفاء والنقاء وصدق العهد والوعد، وكأني بالبيت من قصيدته، يجود بألفاظه، في هذا النوع من الرثاء» [44]. وهذا ما يتضح لنا في مرثيته التي يقول فيها:[45]

لا تحسبوني أنست بعدكم ** إلى هديل الحمام في الشجر**

كما أنّ ابن الرومي قد تتبع في بعض قصائده الرثاء الكلاسيكي الذي يكون عادة لأهل الحكم أو أصحاب الجاه، أو الأمراء، وذلك لغرض التكسب أو لغاية وغرض ما فهذا النوع: «يعتمد على المعاني المطلقة المستقلة، المصوّرة عادة في صورة جعل الخسارة فادحة لا تعوّض، وجعل الفقيد انسان جود وكرم وفضائل، هيهات أن يأتي الزمان بمثلها»[46]. وفي هذا يقول ابن الرومي في امرئ يرثيه:[47]

سوّيت في الحزن بين العالمين، كما ** كما سوّيت بينهم في العشية الرغدِ**
بثثت شجوك فيهم، إذ فقدت كما ** بثثت رِفدك فيهم غير مفتقدِ**

«إنّ كل دارس لهذا الشاعر، يجد المعاني المتضمنة داخل هذين البيتين فاترة العاطفة، تقليدية المعاني، تميل بصاحبها نحو الإكثار في الصنعة و المبالغة، وملامحها عامة السّمات، نجدها لدى الكثيرين من الشعراء»[48]. ويقول الشاعر في هذا السياق من نفس القصيدة السابقة:[49]

كـم مـن مصـائب كـان الـدهر أخلقهـا ** أضـحى بهـا النـاس فـي أثوابهـا الجـدد**

مــن بــين ربــاك، لــه عــين تســاعده ** وبــين آخــر مطــويٍ علــى كمــدِ**

ويستمر الشاعر في مبالغته وصنعته حتى« يصل إلى غايته في التزيين والتصوير الكلامي الغارق في البديع»[50]. فيقول:[51]

هــذا الأميــر أتتــه وهــو ذو كنــف ** كاللّيــل مــن عــددٍ، مــا شــئت أو عــددِ**

مــن كــلّ مســتعذبٍ للمــوت، ديدنُــهُ ** بــزَّ الكُمــاة ولُــبسُ البــيض والــزّردِ**

معتــادة قــنص الأبطــال شــكّته ** يــرى الطّــراد، غــداة الــروع كــالطّردِ**

وهو هنا يردد فضائل المرثي:«فيذكر العيون التي فاضت دموعها حزنا على فقده، و تأرقت إثره، وجعلت تتحرق كأنّها رمداء كحّلت سماً، وهو هنا يجري على عادته بتفصيل المعاني وتجزئتها» [52].

فمن خلال ما أوجزنا في موضوع الرثاء عند ابن الرومي، يمكننا أن نستخلص أهم الخصائص التي تميّز بها في هذا الغرض:فـــ «لم يكن يستجيب دائما للداعي نفسه، وإنما تستحوذ عليه بعض الأفكار الخارجية ومؤثرات نفسية، يتمرس بها، فكان يعمد إلى توظيف بعض الألفاظ لما فيهما من صنعة وإخراج تعبير» [53].

جـ الهجاء:

يؤكد النقاد أن الهجاء فن من فنون الشعر،وله شعراء يجيدون فيه،فعدوا ابن الرومي من بين هؤلاء،بل هناك من أعطاه الريادة ،فاستقر بهذا الفن حتى صار يقال:«أهجى من ابن الرومي »[54] وكان هجاء ابن الرومي كوسيلة لإخراج غليل النفس فكان يرى بأن هذا الفن من عمله وحده وليس من عمل غيره كقول ابن الرومي :«إياك والهجاء يا عبادة، فليس من عملك، وهو عملي. فقال له: نتعاون. وعمل البحتري ثلاثة أبيات، وعمل ابن الرومي ثمانية، فلم يلحقه البحتري في الهجاء» [55]،وقد احتذى ابن الرومي في هجائه طريق جرير وهذا ما يؤكده ابن رشيق:«إلا جريرا فإنه قال : إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة، وإذا هجوتم فخالفوا. وقال أيضا: إذا هجوت فأضحك، وسلك طريقته في الهجاء سواء علي بن العباس بن الرومي،فإنه كان يطيل ويفحش،وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح»[56].«وكان من مشاهير الهجائيين ببغداد،ثم أخذ يهجو كبار زمانه» [57] ولم يسلم صاحبه من هجائه،«لقد تعاصر الشاعران الكبيران وتصاحبا على يد أبي عثمان الناجم، ولكن البحتري لم يسلم من لسان ابن الرومي الذي قال يهجوه من قصيدة طويلة» [58]، يقول فيها:[59]

البحتــري ذنــوب الوجــه تعرفــه ** ومــا رأينــا ذنــوب الوجــه ذا أدب**

أنّــى يقــول مــن الأقــوال أثقبهــا ** مــن راح يحمــل وجهــا ســابع الــذّنب**

كما خالف الناس بهجاء ما اعتاد الناس على مدحه مثل هجاء اللورد، حيث يقول:[60]

وقائــل لــم هجــوت اللــورد متعمــدا ** فقلــت:من بغضــه عنــدي ومــن ســخطه**

يــا مــادح الــورد لا ينفــكّ عــن غلطــهِ ** ألســت تُبصــره فــي كــفِّ ملتقطِــهِ**

كأنــه ســرم بغــل حــين يخرجــه ** عنــد الرّيــاث وبــاقي الــروث فــي وســطه**

*والأمثلة الدالة على السخرية كثيرة ومتنوعة، وقد قال فيه العقاد: « اجتمع لابن الرومي من عناصر السخر ما لم يجتمع لأحد في عصره: اجتمعت له دقّة الملاحظة والإحساس وعمق الشعور بالمناقضات في نفسه وزمنه، وسعة النظر في الفوارق، وسماحة العطف التي تقابل مرارة العصبية. فهو ساخر لا يبارى في سخره، وعابث مطبوع على العبث بكل شيء حتى صحبه ونفسه.»[61] فكان ابن الرومي ممن يخالف الناس، فيذم الحسن ويمدح القبيح، فهجاؤه أصدق من مدحه وذلك يتبين لنا من خلال قوله:[62]

يقولـون لـي: ألفـاظ هجـوك عنـدنا ** إلى القلب من ألفاظ مدحك أسبق**

فقلـت لهم:كـذب مـديحي فـيكم ** وهجـوي لكـم صـدق وللصـدق رونـق**

فمن بين أول أشعارهالتي قالها في موضوع الهجاء «فتروى له أبيات مبكرة قالها في هجاء غلام يقال له جعفر،وفي شبابه» [63]حيث يقول في هذا الفتى الهاشمي يقال له جعفر:[64]

أ جعفـر حـزت جميـع العيـوب ** فمـا فيـك مـن خلـة تمـدح**

وما ميّز ابن الرومي في هذا الفن،أنه لم يهج الآخرين فقط،بل هجا حتى نفسه في كثير من المواضع نذكر من ذلك قوله:[65]

لان وجهـي يقـبح صـورته ** مـازال بـي كالمشـيب والصّـلع**

ولم يسلم حتى والده من هجائه فقال فيه:[66]

لـو كـان مثلـك فـي زمـان محمـد ** مـا جـاء فـي القـرآن بـرّ الوالـد**

« ابن الرومي من أقدر الهجائيين في تاريخ الأدب العربي...وهجاء ابن الرومي جيّد سواء أكان في مقاطع قصار أو في قصائد طوال»[67] فابن الرومي مجيد في هذا الفن سواء اقتصر أو أطال، وقد سلك أساليب أخرى في هجائه أهمها "السخرية" مثل قوله في هجاء بخيل:[68]

يقتـر عيسـى علـى نفسـه ** ولـيس بباقٍ ولا خالـد**

فلـو يسـتطيع لتقتيـره ** تـنفس مـن منخـر واحـد**

فالملاحظ من خلال هذين البيتين أنهما أبلغ ما قيل في البخل،«ولم يفرق في هجائه بين أصحاب العاهات الجسدية،أو أولئك المشوهين بالعاهات الخلقية وكلهم سواسية لديه»[69]. ومن هجائه لأصحاب العاهات الخلقية قوله:[70]

أطلـق الجـرذان بالليـل ** وصـح:"هل مـن مبـارز؟"**

فهو«رسم في هذا الهجاء صورة هزلية،تعبر عن الطريقة التي يسلكها في رسم المشاهد،وعن براعته في دقّة المراقبة،ولإثبات الحركة،ويبحث الصور البعيدة الإيحاء» [71] فهو من أوائل الهجائيين على مرّ الزمان وهذا ما يؤكده لنا عمر فروخ، إذ يقول:«ابن الرومي من أقدر الهجاءين في تاريخ الأدب العربي،و كان الوصف والتحليل يغلبان على هجائه فيكسبانه صورا رائعة تحمل السامع على الهزأ بالمهجو وتجعل الهجاء دائرا على الألسن... وهجاء ابن الرومي جيد سواء أكان في مقاطع قصار أو في قصائد طوال»[72]. فقال يهجو عيسى بن منصور:[73]

عـذرناه أيـام إعدامـه ** فمـا عـذرُ ذي بخـلٍ واجـدِ**

رضـيتُ – لتفريـق أموالـه- ** يـدي وارثٍ لـيس بالحامـد**

«ومن أهاجي ابن الرومي القصار والتي تنطوي على تصوير وتحليل وتهكم نؤلم أهاجيه التالية»[74] حيث يقول:[75]

إن تَطُـــل لحيـــة عليـــك وتعـــرض ** فالمخـــــالي معروفـــــة للحميـــــر**
علّـــق الله فـــي عـــذاريك مخـــلا ** ـــــة ولكنّهـــا بغيـــر شـــعير**

وقال في صلعة أبي حفص الوراق ما يلي:[76]

يـــا صـــلعة لأبـــي حفصـــة ممـــردة ** كـــأن ســـاحتها مـــرآة فـــولاذِ**
تـــرن تحـــت الأكـــف الواقعـــات بهـــا ** حتـــى تـــرن بهـــا أكنـــاف بغـــدادِ**

فالشاعر هنا يسبه صلعة أبي حفص بساحة أم مرآة فولاذ،والساحة دلالة على الكبر ومرآة الفولاذ، تعكس لمعانها وقساوتها، وهذه الصلعة ترن حين تصاب بالأيدي حتى يسمع رنينها مدينة بغداد،فهو وصف ساحر يدفع بالقارئ أو السامع بالضحك،وهناك أمثلة كثيرة ومتنوعة تدل على السخرية. وما أكده محمد عبد الغني حسن أن ابن الرومي أبدع في الهجاء حينما هجا عمر،ووصف وجهه الطويل كطول وجوه الكلاب:«وأبدع ما في هذه الأبيات أن الشاعر أقحم فيها بيتا أو وزنا شعريا بلا معنى،ومن ثم قال للمهجو إنك فارغ بلا معنى كمثل هذا البيت في وسط الأبيات»[77] الذي قاله عمر النصراني:[78]

مســـــتفعل فاعـــــل فعـــــول ** مســـــتفعل فاعـــــل فعـــــول**

غير ما يعاب على ابن الرومي في هذا الغرض أنه وظّف ألفاظ المديح للهجاء حيث قال في هجاء امرأة:[79]

مـــن شـــعرها مـــن فضّـــة ** وثغرهـــا مـــن ذهـــب**

*«إنّ التشبيه بالفضة والذهب إنّما يقع في المدح، وكان يجب أن يهجو هذه المرأة بما يستعمل من ألفاظ الذّم وطرقه»[80]، فنلاحظ أن الشاعر شبّه شعر المرأة بالفضّة،وثغرها بالذهب،فالشاعر هنا أراد أن يصف شعر المرأة بأنه أبيض،وثغرها أصفر فاختار الفضّة والذهب ليشبه بهما البياض والإصفرار،لكن الذهب والفضة عن العامة والخاصة يضربنا لتشبيه الشيء الجميل والمستملح،ولهذا يصحان في المدح لا الهجاء.

«وفن ابن الرومي يعتمد في المرتبة الأولى على العيان والمشاهدة،فهو يلمح بالنظرة الحادة النقائص والعيوب الجثمانية على وجه الخصوص عند خصومه فيصوغها في هجاء مرير لاذع»[81].

*ومن خلال نظرتنا على بعض قصائد ابن الرومي في هذا الغرض،يتجلّى لنا أن معظم هجائه كان فاحشا،وكان واقعيا جادا وقادرا على لمح دقائق العيوب لضرب من الهجاء سمّي الهجاء الساخر،فكان يعبث بمهجويه عبثا لاذعا يشبه عبث الصور الكاريكاتورية،ونذكر ما ذكره ابن رشيق«وقد غلب عليه الهجاء... ومن أكثر من شيء عرف به، وليس هجاء ابن الرومي بأجود من مدحه ولا أكثر ولكن قليل الشر كثير» [82].

وهو القائل:[83]

شـــكري عتيـــد و كـــذاك حقـــدي ** للخيـــر والشـــرّ بقـــاءٌ عنـــدي**
فـــانظر إذا أســـديت مـــاذا تســـدي ** فـــإن شـــكمي مثلـــه وشـــكدي**

وختاما فإنّ الأحاسيس المرهفة المتقلبة التي لا تخلو من اضطراب وتناقض، عنوان يلخص فلسفة ابن الرومي في الحياة ، فهو الداعي للتمتع بملذات الحياة والشهوات المادي، وهو يرى في الشعر عنوانا وبوقا للحقيقة الصارخة، أما فلسفته الدينية فكانت أيضا تتبع العاطفة التي بدورها تخضع لفلسفة الحياة، هذا الشذوذ الذي طال شخصيته وشعره، مرده لطبيعة شخصيته وأصله اليوناني، وما قاساه في حياته من بؤس وشقاء، وهذه العبقرية مكّنته

من أن يضع بصمته في صفحات ديوان الشّعر العربي ، وتبقى أشعاره خالدة، ومرجعا لأهل اللّغة والأدب، والتّذوق الجمالي لمعاني الألفاظ والتعابير الوجدانية الرقيقة.

الهـــــــــــــــــــــــــــــــوامش:

[1] - ابن خلكان، وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان،ج3،ص 358.
[2] - عباس محمود العقاد، تراجم وسير (ابن الرومي، أبي العلاء)،ص 6.
[3] - ضيف شوقي،الفن ومذاهبه في الشارع العربي،ص 202.
[4]- ابن رشيق،العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1،ص 286.
[5]- إحسان عباس،تاريخ النقد الادبي عند العرب/ط4، 1983م،بيروت لبنان،ص590.
[6] - عبد المجيد الحر،ابن الرومي عصره حياته نفسيته فنه من خلال شعره،ص 203.
[7] - مذكرة ماجستير ،جمعة بنت سفر سعيد الزهراني، الإنسان في رؤية ابن الرومي والمتنبي بين المدح والقدح، إ:إبراهم أحمد الحار دلو، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، فرع الادب،1997م ،ص 30.
[8] - ابن رشيق،العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.ج1،ص 189.
[9] - ديوان ابن الرومي،ت:أحمد حسن بسج،ج1،ص 58.
[10] - ابن قتيبة ،الشعر والشعراء، ت:أحمد محمد شاكر،ج1،دار المعارف، القاهرة، مصر، كورنيش النيل،ص (75-76).
[11]- ديوان ابن الرومي،ت:أحمد حسن بسج ،ج1، ص 10.
[12] - المصدر نفسه، ج1،ص 10.
[13] - المصدر نفسه ،ج1،ص 31.
[14]- شوقي ضيف،الفن ومذاهبه في الشعر العربي،ص 204.
[15] - المرجع نفسه،ص 204.
[16] - "ينظر"،المرجعالسابق،ص (205-204).
[17]- جمعة بنت سفر سعيد الزهراني، الإنسان في رؤية ابن الرومي والمتنبي بين المدح والقدح،ص 102.
[18] - ديوان ابن الرومي،ت: أحمد حسن بسج،ج2،ص(7-8).
[19] - المصدر نفسه،ج3،ص213.
[20] - عباس محمود العقاد،تراجم وسير ابن الرومي أبي العلاء،ص 230.
[21] - ديوان ابن الرومي ،ت: أحمد حسن بسج،ج1،ص 28.
[22] - عباس محمود العقاد،تراجم وسير ابن الرومي أبي العلاء ، ص 231.
[23] - عبد المجيد الحر، ابن الرومي عصره حياته نفسيته فنّه من خلال شعره،ص 209.
[24] - عباس محمود العقاد، ابن الرومي حياته من شعره، ص259.
[25] - ديوان ابن الرومي ، ت: احمد حسن بسج،ج1،ص 322.
[26] - عبد المجيد الحر، ابن الرومي عصره حياته نفسيته فنه من خلال شعره، ص 209.
[27]- المرجع نفسه، ص165.
[28]- " ينظر" اليا سليم الحاوي، ابن الرومي فنّه ونفسيته من خلال شعره، ص (199- 200).
[29]- ديوان ابن الرومي، ت: أحمد حسن بسج،ج1،ص400.
[30]- المصدر نفسه، ج3، ص (433-434).
[31]- فوزي عيسى ، في الشعر العباسي، ص 348.
[32]- ديوان ابن الرومي، ت: أحمد حسن بسج ، ج1،ص135.
[33]- عبد المجيد الحر، ابن الرومي عصره حياته نفسيته فنّه من خلال شعره،ص166.
[34]- ديوان ابن الرومي، ت: أحمد حسن بسج، ج1، ص405.
[35]- المصدر نفسه، ج1، ص406.

[36]- الیا سلیم الحاوي، ابن الرومي فنّه ونفسیته من خلال شعره،ص223.
[37]- محمد رجب البیومي، الأدب الأندلسي بین التأثر و التأثیر،ص233.
[38]- قراءة في قصیدة ابن الرومي رثاء مدینة البصرة، www.aklaam.net/forum/showthread.php، یوم: 21-03-2012/ الساعة: 14:22.
[39]- عبد المجید الحر، ابن الرومي عصره حیاته نفسیته فنّه من خلال شعره، ص178.
[40]- دیوان ابن الرومي، ت: أحمد حسن بسج،ج3، ص339.
[41]- عبد المجید الحر، ابن الرومي عصره حیاته نفسیته فنّه من خلال شعره، ص178 .
[42]- المرجع نفسه، ص178.
[43]- دیوان ابن الرومي ، ت: أحمد حسن بسج، ج3، ص340.
[44]- عبد المجید الحر، ابن الرومي عصره حیاته نفسیته فنه من خلال شعره، ص (175.174).
[45] - دیوان ابن الرومي، ت:أحمد حسن بسج،ج2، ص18.
[46]- عبد المجید الحر، ابن الرومي عصره حیاته نفسیته فنه من خلال شعره ، ص (169.168).
[47]- دیوان ابن الرومي، ت:أحمد حسن بسج ، ج1، ص406.
[48]- عبد المجید الحر، ابن الرومي عصره حیاته نفسیته فنّه من خلال شعره، ص169.
[49]- دیوان ابن الرومي، ت:أحمد حسن بسج،ج1، ص406.
[50]- عبد المجید الحر، ابن الرومي عصره حیاته نفسیته فنّه من خلال شعره ،ص169.
[51]- دیوان ابن الرومي، ت:أحمد حسن بسج ، ج1،ص 405.
[52]- عبد المجید الحر، ابن الرومي عصره حیاته نفسیته فنه من خلال شعره،ص170.
[53]- "ینظر" المرجع نفسه، ص175.
[54] - ابن رشیق القیرواني، العمدة في محاسن الشعر،ج1،ص 286.
[55] - المرزباني (أبي عبد الله محمد بن عمران)،الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء،ت:محمد حسین شمس الدین،دار الكتب العلمي،بیروت لبنان،ط1 ، 1995، ص 337.
[56] - ابن رشیق القیرواني، العمدة في محاسن الشعر ، ج2، ص 172.
[57] - كارل بروكلمان، تاریخ الأدب العربي، تر:عبد الحلیم النجار،ج2،ص 45.
[58]- محمد عبد الغني حسن،نوابغ الفكر العربي ابن الرومي،ص 69.
[59] - دیوان ابن الرومي، ت:أحمد حسن بسج،ج1، ص179.
[60] - المصدر نفسه، ج2،ص320.
[61] - عباس محمود العقاد، ابن الرومي حیاته من شعره،ص141.
[62]- دیوان ابن الرومي، ت:أحمد حسن بسج ،ج2، ص504.
[63]- المصدرالسابق،ج 1، ص 8.
[64] - المصدر نفسه، ج1،ص357.
[65]- المصدر نفسه،ج2،ص335.
[66] - المصدر نفسه، ج1، ص525.
[67] - عمر فروخ، تاریخ الادب العربي الأعصر العباسیة ،دار العلم للملایین،بیروت لبنان،ط4،أریل،1981م ،ج2،ص 346.
[68] - دیوان ابن الرومي ،ت: احمد حسن بسج،ج1، ص412.
[69] - عبد المجید الحر،ابن الرومیعصره حیاته نفسیته فنه من خلال شعر،ص 138.
[70] - المرجع نفسه، ص139.
[71] - المرجع نفسه ،ص 139.
[72] - عمر فروخ، تاریخ الادب العربي، الأعصر العباسیة، دار العلم للملایین، ط 4/سنة 1981م/ج2،ص 346.
[73] - دیوان ابن الرومي ،ت: احمد حسن بسج ، ج1 ،ص412.
[74] - عمر فروخ، تاریخ الادب العربي، الأعصر العباسیة ، ج2، ص 346.

[75] - ديوان ابن الرومي ،ت: احمد حسن بسج ، ج 2، ص23.
[76] - المصدرالسابق، ج1، ص 530.
[77] - محمد عبد الغني حسن،نوابغ الفكر العربي ابن الرومي،ص 71.
[78]- ديوان ابن الرومي، ت:أحمد حسن بسج، ج3 ،ص139.
[79] - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ،ط1، سنة 1982م، ص162.
[80] - المصدر نفسه، ص162.
[81] - كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحميد النجار،ج2،ص 45.
[82] - ابن رشيق، العمدة،ج1،ص 286.
[83] - ديوان ابن الرومي، ت:أحمد حسن بسج ،ج1،ص449.